محمد ﷺ في التاريخ

اتصال التاريخ بمحمد ﷺ

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمداً ﷺ في عبقريته ، أو محمداً ﷺ في نفسه، أو محمد ﷺ في أخلاقه التي يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ، ومن لا يدين له برسالة . (١)

ونريد بهذا الفصل ، وهو خاتمة الكتاب ، أن نذكر كلمة موجزة عن محمد ﷺ في التاريخ ، أو محمد ﷺ في العالم وأحداثه الخالدة ، وهو بحث يغنينا فيه الإيجاز، لأن العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد ﷺ فيه .

محمد ﷺ في نفسه عظيم بالغ العظمة ، وفقاً لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة .

فما مكان هذه العظمة في التاريخ ؟ وما مكانها في العالم وأحداثه الباقية على تتابع العصور ؟

مكانها في التاريخ : أن التاريخ كله بعد محمد ﷺ متصل به مرهون بعمله ، وأن حادثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد ﷺ وظهور عمله .

فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوربا في العصور الوسطى ، ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القارة الأمريكية ، ولا

---

(1) من أهل الحق والأمانة فقط وإلا فلقد شهد التاريخ منذ بعثة النبي ﷺ إلى اليوم من عاداه وسبه ورماه بالباطل بالجنون ، والسحر ، والكذب ... مما هو مبرأ منه ﷺ .

مساجلة الصراع بين الأوربيين والآسيويين والأفريقيين ، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى التي شهدناها قبل بضع وعشرين سنة ، ولا الحرب العظمى الحاضرة التي نشهدها في هذه الأيام [١] ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة في الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذي ولد في شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح . [٢]

كان التاريخ شيئاً فأصبح شيئاً آخر ، وتوسط بينهما وليد مستهل في مهده بتلك الصيحات التي سمعت في المهود أعداد من هبط من الأرحام إلى هذه الأرض ، ما أضعفها يومئذ صيحات في الهواء ، ما أقواها بعد ذلك أثراً في دوافع التاريخ ، ما أضخم المعجزة ، وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال ، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون . [٣]

فتوح إيمان

على أننا نستعظم الأحداث العظيمة في تاريخ بني الإنسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان . وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال فيتصل به من أحداث الحروب والفتوح ما يبدل في التاريخ ، ويبعث دوافع الشعوب .

([1]) نشر كتاب العقاد " عبقرية محمد " عام ١٩٤٢ م .

([2]) إذا كانت فتوح العرب الشرق والغرب والحروب الصليبية ما كانت لتقع لولا بعثة رسول الله وإيمان الناس به ولكن لا أدري ما علاقة بعثته ﷺ بالثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات ، وبالحربين العالمين : الأولى والثانية والأحداث العالمية التي لا علاقة للإسلام المسلمين بها من قريب أو بعيد إلا إذا كان المسلمون هم الذين قاموا بالثورة الفرنسية والبليشفية الشيوعية ، وأشعلوا الحربين العالميتن !!!

([3]) كلام غامض لا معنى له غير الجملة الأولى " كان التاريخ شيئاً فأصبح شيئاً آخر " هو ، وربما يقصد أن البشرية كانت تتطلع إلى منقذ لها مما صارت إليه من كفر وظلم وفساد وغياب الإيمان والعدل والإصلاح .

أما غير الجائز فهو أن تنفتح للإنسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الإيمان ،وبغير رسالة باطنية تسبق هذه الظواهر التي تفزع الأنظار.

ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالماً مغلقاً تحيط به الظلمات ، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها ، فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد الحدود وراء الحدود ، ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة ، فارتفع به مرتبة فوق مستوى الحيوان، ودنا به مرتبة إلى الله .

يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة في عالم الضمير .

فمن أنكرها فإنما ينكر تقدم الإنسان كثيراً أو قليلاً في هذه الطريق .

عقد عالم أوربي مقارنة بين محمد ﷺ وبوذا والمسيح فسأل :

" أليس محمد نبياً على وجه من الوجوه ؟ " ثم أجاب قائلاً : " أنه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وأنه لجدير في هذه الفضيلة أن يعلو أكثر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني إسرائيل ، لأنه جازف بحياته في سبيل الحق ، وصبر على الإيذاء يوماً بعد يوم عدة سنين ، وقابل النفي الحرمان والحقد ، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الجملة أقصى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذي نجا منه بالهجرة ، واستمر مع هذا كله على نشر رسالته غير قادر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء .. وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عبَّاد الأوثان ، إلا أن أحداً آخر غير محمد ﷺ لم يقم في العالم مثل ما أقام به من إيمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك إلا لقوة عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان . فإذا سأل سائل : " ما الذي دفع بمحمد إلى إقناع غيره

حيث رضي الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة في إيمانه بصدق ما دعا إليه " [1]

والحقيقة التي يراها المنصف مسلماً كان أو غير مسلم هي هذه : هي أن فتوح محمد ﷺ إيمان ، وأن قوة محمد ﷺ قوة إيمان ، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل . لقد جاء الإغراء الذي أشار إليه العالم الأوربي وهو داعٍ مهدد في سربه ، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته ، فما اهتم بالإغراء وهو بعيد من مقصده ، ولا اهتم به وهو واصل إليه .

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو في بداية البعثة فقال واعداً ملاطفاً بعد أن أتعبهم تخويفه متوعدين : " يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم (اتهمتهم بضعف العقول) وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال ﷺ : قل يا أبا الوليد . فقال : يا ابن أخي ! إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك (جعلناك سيداً) علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان الذي يأتيك رئياً (مسّاً) من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك (نشفيك) منه " . فما زاد عليه السلام على أن أجابه بآيات من القرآن الكريم ثم تركه يعود كما أتي [2] .

---

(1) الحقيقة أن الذي دعا محمد ﷺ إلى الدعوة إلى التوحيد هو أمر الله تعالى له بذلك ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤] ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧]

(2) هذا الحديث حسنه الألباني وبقيته هي " حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ وسلم يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال فاستمع مني، قال: أفعل. فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ=

ثم أدرك النبي ﷺ غاية ما سعى إليه فلم يدخل له المال ولا المتاع في حساب ، ولم يكن النعيم المستطاع أفعل في إغرائه من النعيم الموعود ، بل كان النعيم المستطاع فوق ما حلم به عتبة بن ربيعة ، وكان النبي ﷺ أزهد فيه من زهده في النعيم الموعود فلم كل هذا ؟ لم هذا الجهاد ؟ ولم هذا التعب ؟ ولم هذا الصبر إن لم يكن في سبيل الإيمان ؟ وأي نبي له من الإيمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ، ورسالة أكبر من هذه الرسالة ؟ وأي إنسان يعرف تعظيم الأنبياء إن لم تظفر نبوة محمد عنده بالتعظيم؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد ﷺ والكارهين له : حكمه أنفذ من حكم الأعداء والأصدقاء ، وأنفذ من حكم المشركين والموحدين ، وأنفذ من حكم المتدنيين والملحدين؛ لأنه حكم الله .

وقد حكم له أنه كان في نفسه قدوة المهذبين ، وكان في عمله أعظم الرجال أثراً في الدنيا ، وكان في عقيدته مؤمناً يبعث الإيمان ، مصاحب دين يبقى ما بقيت في الأرض أديان .

=الرَّحِيمِ ﴿ حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت:١-٥]، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعضٍ: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم " [رواه البيهقي في الدلائل وحسنه الألباني]

وسيطلع في الأفق هلال ويغيب هلال ، وسيذهب في الليل قمر بعد قمر ، وتتعاقب هذه الشهور التي كأنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور ، لأن الناس لا يؤرخون بها موسم الزرع ، ولا مواعيد الأشغال ، ولا أدوار الدواوين والحكومات ، ولا ينتظرونها إلا هداية مع الظلام ، وسكينة الليل : أشبه شيء بهداية العقيدة في ظلمات الضمير .

يوم الغار

ستطلع الأقمار بعد الأقمار ، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية ، وكأنها تقبل بمعالم من معالم السماء يشير إلى بقعة من الأرض : هي غار الهجرة ، أو يشير إلى يوم لمحمد ﷺ هو أجمل أيام محمد ﷺ لأنه أكثر الأيام دلالة على رسالته ، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته ، وهو يوم التقويم الذي اختاره المسلمون بإلهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم .

لِمَ كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ في الإسلام ، ولِمْ يكن يوم الدعوة ؟ ولِمَ لَمْ يكن يوم بدر ، أو يوم ولادة النبي ﷺ أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ ؟ كان يوم من هذه الأيام كان في ظاهر الرأي وعاجل النظر أولى بالتأريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة في ظلام الليل . [1]

فالرجل الذي اختار يوم الهجرة بدءاً لتاريخ الإسلام قد كان أحكم رآه .

لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ، ولا تقاس بالفوز والانتصار : كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة ، أما النفس التي تعتقد حقاً ، ويظهر فيها انتصار العقيدة حقاً فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومن حولها أنواع البلاء .

([1]) لم يهاجر النبي ﷺ في ظلام الليل كما قال العقاد إنما هاجر ظهراً فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ لَقَلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلا يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النَّهَارِ فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ يَرُعْنَا إِلا وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ ... " [رواه البخاري]

وليس يوم أحق بالتاريخ إذن من اليوم الذي هجر فيه النبي ﷺ بلده ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٤٠] ليقل من قال : إن التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتاً معروفاً على عهد النبي ﷺ وليقل من قال : إن دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة ، وهو يوم عظيم، ليقل من قال هذا أو ذاك ، فإن تاريخ النصر في القرآن ظاهر إذ هو " ثاني اثنين " في الغار .

وأن ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد ، سواء أكان هو المقترح أو مجيب الاقتراح، حين نظر إلى غار " ثور " ولم ينظر في التاريخ إلى نصر المدينة ولا إلى نصر بدر ، ولا إلى نصر أحد ، ولا إلى نصر فارس ، ونظر إلى تلك " الجنود التي لم تروها " وقد نراها نحن الآن .

يوم الدعوة لم يكن يوم الإسلام الأول ؛ لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل إنسان ، ويستطيع الرجوع عنها بعد قليل أو كثير . ويوم ميلاد النبي ﷺ لم يكن يوم الإسلام الأول ؛ لأن ميلاد محمد ﷺ لم يكن معجزة الإسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمد ﷺ بشر مثلنا في مولده ، ولكنه سيد الرسل يوم دعا ، ويوم نجا بالدعوة إلى حيث تنجو وحيث تسود ، وحيث يكون امتحانها الأول في قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان في الغار .

كذلك تؤرخ العقائد والأديان : بالشدة تاريخها ، وليس بالغنائم والفتوح وأنها لشيء في القلوب ، فلنعرفها إذن حين لا تكون إلا في القلوب ، وحين يكون كل شيء ظاهر كأنه ينكرها وينفي وجودها وهي يومئذ من الوجود في الصميم .

يوم عقيدة ورجاء

إن يوم الغور ليوم له عبرته وعزاؤه في كل يوم ولا سيما أيام القلق والحيرة والانتظار .

إنه يوم عقيدة : فهو يوم رجاء ، ويوم نظر إلى المستقبل الذي ينظر إليه من ليس له رضى في حاضره عهده ، وحاضر العالم في عهده لا يرضى أحداً من محبيه ، حيثما غلبت الحيرة والقلق في العالم فهنالك أمر واحد كن منه على أتم اليقين . كن على يقين أن العالم يبحث عن عقيدة روحية !

لأنه يضيق بالحاضر وينظر إلى المستقبل ، وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصدور أن لم يكن موضوع رجاء ومرجع إيمان ، وغاية سعي يستحق الكفاح ، وفي التاريخ الإنساني كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضي الذي لا مستقبل بعده إنما تقوم الحركات العظمى جميعاً على الرجاء في غد مستور .

أو على شيء يمكن أن يتحقق في حياة الإنسان ، شيء يبقى أبداً موضع الرجاء البعيد .

لقد كان على الفتى يستقبل الدنيا ، وكان أبو بكر كهلاً يدبر عنها يوم أعانا محمداً ﷺ في يوم حراء ، ولكنهما كانا معاً على أبواب غد واحد ورجاء واحد ، يستوي فيه الفتى والكهل والشيخ الداخل إلى قبره ، لأنه رجاء الإيمان لا رجاء المشاهدة .

المستقبل للإيمان

ماذا فتح الإسلام لأبي بكر من عوالم الحياة ؟ هل رجع به إلى الماضي ، أو أقبل به على المستقبل ؟ هل مشي به في حركة إلى أمام أو رجع به في رجعة إلى وراء ؟ الحق أن الإسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب ، وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء ، وكان يفتح أمام أبي بكر ، وليس أمام علي وحده ، باب الحياة الصالحة في الدنيا ، وباب الحياة الخالدة في الآخرة ، وهكذا كل عقيدة فما هي بعقيدة على أي معنى من معاني الاعتقاد إن كان خيرها كله شيئاً يناله الإنسان في أيامه ، فلا مناص في العقيدة من خير وراء أيام الفناء . ليذكر هذا

جميعه من يتحفزون للنهوض ومن يبتغون الحركة ، ويقودون الخطوات المقبلة في عجلة أو اناة لن تتحرك أمة إلا إذا فتحت أمامها باب المستقبل ، ولن تلتفت إلى الماضي إلا إذا كان فيه التقاء بالمستقبل ، ولن تغيره الحياة إلا وهو مبعوث من جديد في صورة الخلق الجديد.

ليذكر هذا من يحارون في أمر العالم اليوم وهو غارق في دمائه ، ضائق بحاضره ، مغرض عن ماضيه ، فيم يحار ؟

في طلب المستقبل ، وفي طلب العقيدة ، وفي طلب المسوغ للوجود لأن الوجود وحده لا يكفي الإنسان إلا أن يكون على طبقة مع الحيوان . فالإيمان للمستقبل ، وعسى أن يكون المستقبل للإيمان وعسى أن يجد العالم العزاء باقياً من يوم غار ومن صاحب يوم " الغار " .

***

obeikandl.com